الرحلة العربية

●.. في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، قام ملك الدانمرك بتنظيم رحلة إلى اليمن، اطلق عليها الرحلة العربية. انطلقت هذه الرحلة من كوبنهاجن إلى القسطنطينية فالاسكندرية، وبعد قضاء عامين في مصر، انطلقت البعثة في سفينة حجاج إلى جدة، ومن جدة ابحروا في مركب صغير إلى ميناء اللحية في اليمن، ومن هناك بدأوا رحلتهم داخل الأراضي اليمنية.

شارك في هذه الرحلة خمسة أشخاص هم فون هافن (دانماركي)، فورسكال (سويدي)، نيبور، كريستينا كرامر طبيب البعثة، باور نفانيد رسام البعثة، إضافة إلى خادم عسكري سويدي اسمه برججرين.

رافق الشؤم أعضاء الرحلة منذ بداية انطلاقها من كوبنهاجن، حيث قابلتهم عاصفة شديدة اضطرتهم للعودة إلى الشاطئ بعد أن فقد بعض الملاحين حياتهم، وقد عادت سفينتهم للابحار ثانية بعد هدوء موسم العواصف، وحين وصلت البعثة إلى اليمن فتكت بهم الملاريا، وقد مات فون هافن في المخا وتبعه فورسكال في يريم، وفي طريق عودتهم عبر الهند مات اثنان من أعضاء البعثة في البحر بسبب الملاريا أيضاً، ثم مات طبيب البعثة كرامر بعد وصوله إلى بومباي، ولم يعد من أعضاء هذه البعثة سوى نيبور، الذي قام بتدوين يوميات هذه الرحلة ورصد نتائجها العلمية في كتابين أصبح لهما شهرة كبيرة.

هشام علي

نحاول في هذا المقال تتبع هذه الرحلة ودلالاتها العلمية والتاريخية والاستراتيجية، واستخلاص المضامين العميقة التي يمكن أن تختفي في تفاصيل الرواية.

اليمن والدانمارك، بلدان باعدت بينهما الجغرافيا ووحدهما التراث الإنساني، ففكرة البعثة انطلقت من التوراة، حيث عرض المستشرق وعالم اللغة ميشائيلس فكرة إقامة رحلة علمية إلى اليمن، منطلقاً من ضرورة البحث في اللغة واللهجات، لقد كان هدفه أن يستفيد من نتائج الرحلة في دراسته التي كان يقوم بها للتوراة، وأن تجيب المعلومات، التي ستحصل عليها البعثة، على الكثير من التساؤلات التي تنتظر الإجابة، بل وأن تعزز نتائج الرحلة نظرته المتحررة إلى التوراة، باعتبارها نصوصاً يمكن دراستها لغوياً وتاريخياً، من خلال دراسات تاريخية ولغوية وجغرافية للبيئة التي وجدت فيها التوراة، ولأن هذه البيئة متعددة الجوانب، فإن دراستها دراسة شاملة تمثل أفضل السبل للوصول إلى معلومات تفيد في تفسير التوراة »١«.

وقد جاء الباحث اللبناني كمال صليبي بعد قرنين من الزمان، ليحاول إثبات الحقيقة ذاتها، مقدماً تحليلاً جغرافياً للأماكن التي ورد ذكرها في التوراة ومطابقتها مع أسماء الأماكن في جنوب جزيرة العرب، وقد قام الباحث الفلسطيني زياد منى مؤخراً، بمواصلة البحث في ما بدأه الدكتور صليبي وذلك في دراسته »عودة التاريخ المخطوف« »٢« التي تشكل جزءاً من اطروحته للدكتوراه في جامعة برلين.

وبصرف النظر عن صحة النتائج التي وصل إليها الباحثون في علم اللغة والجغرافيا، وهي نتائج يجب أن تدعمها الآثار والنقوش في اليمن، حيث تظهر أهمية الحفريات الآثارية والمعرفية، فاليمن يتحدد تاريخياً كمركز حضاري وديني هام في العصور القديمة، والصفة الأخرى هي استمرارية هذا التاريخ وعدم انقطاعه، فأسماء الأماكن لم تتبدل كثيراً، ولهجات الحديث اليومي المتداولة تمتد جذورها في التاريخ لتتصل بلغة حمير، وهذا ما يجعل اليمن خزاناً هائلاً للمعرفة التاريخية، وقد أشار ميشائيلس إلى هذه الحقيقة قائلاً: »إن هذا البلد غني بالثروات الطبيعية التي لا تزال مجهولة عندنا، وتصل جذورها التاريخية إلى قديم الأزل، كما تختلف لهجته عن اللهجة العربية لسكان المناطق الغربية، أليس من المتوقع إذن أن تساعدنا لهجة العرب الشرقية على زيادة معرفتنا بأهم كتب العالم القديم ألا وهو الانجيل؟« »٣«.

النقطة الثانية في هذه الرحلة متعلقة بالتاريخ، اليمن والدانمارك في القرن الثامن عشر، عالمان مختلفان تاريخياً واجتماعياً وثقافياً، ومن هنا أهمية هذه الرحلة وتاريخيتها، أنها لحظة اتصال بين عالمين، وصل بين زمنين متغايرين، اليمن في ظل أئمة عديدين، كان أقواهم وأوسعهم رقعة الإمام المهدي عباس بن المنصور.

والدانمارك في ظل الملك فريدريك الخامس، الذي حاول أن يجعل بلاطه منبراً للحوار، يجتمع فيه العلماء والأدباء، وأظهر رعاية وتشجيعاً للعلماء والباحثين، »لا بد أن يتساءل المرء عن الدوافع التي جعلت ملك الدانمارك يوافق على المشروع بهذه السرعة، وعلينا أن نبحث عن هذه الدوافع في المناخ العام لذلك العصر، فقد كان من تقاليد ذلك العصر مساندة ودعم الفنون والعلوم، وكان فردريك الأكبر ملك بروسيا يقضي أوقات فراغه في مناقشات فلسفية مع فولتير وفي العزف بالنادي مع يوهان سبستيان باخ، وهو بهذا قد ضرب المثال لفردريك ملك الدانمارك« »٤«.

هذه هي خلفية تنظيم هذه البعثة، البحث عن المجد والخلود في سجل التاريخ، هكذا كان تفكير ملك الدانمارك، وهذا ما أعلنته إحدى الصحف الدانماركية الصادرة في عام إرسال البعثة، »لما كان جلالته ورغم همومه السياسية الكبيرة في هذه الظروف الصعبة – يطمح طموحاً لا يعرف الكلل، إلى التوسع في التعليم، ورعاية العلم والارتفاع بمكانة شعبه، من خلال عمل مفيد وعظيم، فقد قام جلالته قبل بضعة أيام، بإرسال مجموعة من العلماء إلى القسطنطينية، على ظهر الباخرة جرين لاند، المتجهة إلى البحر المتوسط، حيث ستتجه هذه المجموعة من هناك إلى العربية السعيدة، عبر مصر...« »٥«.

ولكن هل يكفي هذا السبب وحده لتبرير هذه البعثة، لم تكن الدانمارك في ظرف يسمح لها بالمغامرة من أجل العلم، »نعم، كان وقتاً عصيباً، حقاً، ولعل الرجال لا يحلمون بالسفر إلى العربية السعيدة إلا في الأوقات العصيبة دون غيرها، ففي عام ١٧٦١م كانت تسيطر على الجميع مخاوف الحرب، وكانت الدانمارك تنفذ في هذا الوقت أعظم البرامج الثقافية التي لم تشهد البلاد لها من قبل مثيلاً، مع أن أوضاع البلاد العامة لم تكن مناسبة ولا مشجعة، فالشؤون المالية كانت في فوضى نتيجة للحرب في ألمانيا، وكان برنستورف مضطراً لأن يترك جيشاً قوامه أربعة وعشرون ألف جندي مرابطاً على الحدود في هولستن لحمايتها، وكلف الدولة هذا الإجراء مبالغ باهظة، كما أن تهديد نشوب الحرب مع روسيا قد دفع النشاط الدبلوماسي والحياة السياسية إلى الاضطراب ولم يكن اليوم بعيداً الذي يرسل فيه بطرس الثالث جيشه لمطاردة الرحلة إلى ترنكبار، وسيطر على جو العلاقات الدولية كله في ذلك الوقت العديد من التهديدات وكان يكمن وراء الأفق ما يمكن أن يسميه الناس بعدئذ حرباً عالمية، كما أن فريدرك الأكبر لم يكن قانعاً أن يظل يعزف على الناي في سان سوسن« »٦«.

هذا الوضع العام، الذي تلمسنا معالمه من خلال الآراء السابقة، يدفعنا إلى التساؤل، أهي المعرفة الخالصة وحدها تدفع ملك الدانمارك إلى تنظيم هذه الرحلة، على الرغم من الظروف المالية والحربية التي كانت تواجهها، أم أنها المعرفة السياسية، ضرورات الاقتصاد والاستراتيجية تلتحم بالهدف المعرفي وتجعل من البحر الأحمر واليمن على وجه التحديد، موقع تصادم استراتيجيات غربية متنافسة، هذا التساؤل وضعه إدوارد سعيد في وجه الاستشراق ككل، حيث حاول تمييز المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية، ووصل إلى إقرار البعد السياسي الدائم في المعرفة الاستشراقية، »ولذلك فإن الاستشراق ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة، والبحث، والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبراً عن، وممثلاً لمؤامرة امبريالية »غربية« شنيعة لإبقاء العالم »الشرقي« حيث هو، بل إنه بالحري، توزيع للوعي الجغرا- سي إلى نصوص جمالية، وبحثية، واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية، وفقه لغوية، وهو إحكام لا لتمييز جغرافي وسياسي وحسب (العالم يتألف من نصفين غير متساويين، الشرق والغرب) بل كذلك لسلسلة كاملة من »المصالح« التي لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط، بل بالمحافظة عليها أيضاً بوسائل كالاكتشاف البحثي، والاستبناء فقه اللغوي، والتحليل النفسي، والوصف الطبيعي والاجتماعي، وهو إرادة، بدلاً من كونه تعبيراً عن إرادة، معينة أو نية معينة لفهم ما هو، بوضوح، عالم مختلف (أو بديل وطارئ) والسيطرة عليه أحياناً والتلاعب به، بل حتى ضمه، وهو قبل كل شيء، إنشاء ليس على الإطلاق على علاقة تطابقية مع القوة السياسية في شكل الخام«، ويخلص إدوارد سعيد إلى أن »الاستشراق لا يمثل ببساطة بعداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية – الفكرية الحديثة، بل أنه هو هذا البعد« »٧«.

نستطيع القول إن عاملين اثنين حددا هذه البعثة:

١- روح التنوير والمعرفة والكشوف الجغرافية التي ميزت أوروبا في عصر الأنوار، وقد كان ملك الدانمارك يطمح إلى جعل مملكته منارا علمياً وثقافياً في أوروبا.

٢- الوجه الآخر للمعرفة الاستشراقية، وهو السياسة والصراع من أجل اكتساب مواقع استراتيجية وخطوط بحرية، ولا ننسى أن أوروبا في هذه الفترة كانت تسعى إلى وراثة تركة الامبراطورية العثمانية.

وقد كانت الرحلة إلى اليمن هي ثاني محاولة دانماركية في مجال الكشوف الجغرافية وبدايات الاستشراق، كانت الأولى هي الرحلة التي قام بها الضابط البحري فريدريك لوزفيك نوردن إلى مصر وأثيوبيا وقد صدر عنها كتاب بعنوان »الرحلة إلى مصر وأثيوبيا« هدف هذه الرحلة كان واضحاً، التخطيط لعلاقات تجارية مع امبراطورية الحبشة.

الرحلة إلى اليمن لم تتخذ التجارة هدفاً صريحاً لها، على الرغم من أن خرائط نيبور للبحر الأحمر التي سلمها لاحقاً لبحار انجليزي، فتحت باب الملاحة واسعاً أمام السفن الغربية في البحر الأحمر، كان الهدف العلمي، غالباً، تحقيق نصوص التوراة على نحو ما أراد المستشرق ميشائيلس، الكشف عن شجرة البلسم التي تحدثت عنها التوراة، نلاحظ أن هذا السبب كان وراء البعثات الاستشراقية الأولى في أماكن مختلفة من الشرق، كان الجميع يحلم بغزو الشرق وتعريته من حجبه والنفاذ كذلك إلى ما وراء الملجأ النسبي للشرق التوراتي على حد تعبير إدوارد سعيد، لقد رحل المستشرق دوبرون إلى الهند في سنوات قريبة من سنوات حملة نيبور، وكان يهدف أيضاً إلى أن يبرهن على الوجود الفعلي للشعب المختار ولسلاسل الانساب التوراتية.

التوراة وتحقيق نصوصها، معرفة أسماء الأماكن والنباتات التي ورد ذكرها في التوراة، هذه هي الأسئلة التي وضعها ميشائيلس لأعضاء البعثة، وطلب منهم جميعاً الإجابة عليها، لنقرأ أيضاً ما جاء في الأمر الملكي الخاص بالبعثة.

– إن واجبكم الأول هو أن تتعلموا اللغة العربية، قدر استطاعتكم، وسياساعدكم في ذلك، من رفاقكم، عالم النبات وعالم اللغات.

– سوف ترحلون في الأجزاء الداخلية للعربية السعيدة، وأيضاً ستمرون على طول شواطئها، وسوف تسنح لكم الفرصة لزيارة أماكن كثيرة، تتفشى فيها الأمراض القاتلة، وبما أن طبيباً يرافقكم فسوف لا تتعرض حياتكم لأخطار هذه الأمراض.

– سيكون لكل منكم مذكرة يسجل فيها ذكرياته، وعليه أن يبعث بصورة منها بشكل دائم، حين تسمح الظروف.

– على كل منكم التعامل مع »المحميين« في حذر شديد، واحترام دينهم، وعدم التصرف مع نسائهم بحرية كما يتصرف، مع النساء الأوروبيات.

– سوف يكون تحت تصرفكم مبلغ الفين ريجسد لشراء المخطوطات بأسعار معقولة (٠٠٠) والغرض من هذا شراء مخطوطات التاريخ الطبيعي ، والجغرافيا والتاريخ وشراء المخطوطات القديمة للتوراة ونسخ للترجمة العربية للتوراة، وخاصة الغائر منها في القدم والتي كتبت باحرف ابجدية تختلف عن التي تستخدم الآن.

– (.....) عليكم أن تجمعوا المعلومات لعمل الخرائط للمناطق التي تمرون بها، وعليكم ملاحظة الاختلافات التي يمكن أن تكون بين الفصول الجافة والفصول المطرة، وعليكم الاهتمام باي شيء أثري من العصور القديمة ووجهوا همكم ايضاً إلى حجم السكان والى خصوبة الأرض، وأكثر من هذا عليكم ان توجهوا اهمية خاصة إلى حركة المد والجزر في البحر الأحمر ، والى العلاقات بين الأحياء والأموات، وإلى تأثير تعدد الزوجات في زيادة أو نقصان السكان، والى العلاقات بين الرجل والمرأة وإلى عدد النساء في المدينة والريف.

– على البروفسور فون هافن أن يلاحظ تقاليد وعادات أهل البلاد وخاصة تلك التي ألقى عليها القليل من الضوء ، والكتاب المقدس والقوانين اليهودية ، وعليه أن يعمل ليكتشف بقدر الامكان كل شيء عن العرب والاسرائيليين والسوريين وأن يطلع على طقوس وعادات الوثنيين قبل الاسلام، ويسجل أي اختلافات يجدها عما جاء في التوراة المكتوبة باللغة القديمة ، وعما جاء في المخطوطات اليونانية، وأية مخطوطات قديمة عربية أو شرقية لا يستطيع تفسيرها ، عليه أن ينقلها طبق الأصل.

– على البروفسور فورسكال أن يجمع المعلومات عن الحيوانات والنباتات وعلى الأخص تلك التي جاء ذكرها في التوارة. (٨).

يتضح من وصايا الملك، أن التوراة لم تكن غاية بحد ذاتها، بل أن هناك مهام تبدو مستغربة من بعثة علمية ليست لها أهداف أخرى ، مثل عدد السكان ونسبة زيادتهم ، حركة المد والجزر في البحر الأحمر ، هل نجازف بالقول أن هذه البعثة كانت تمهد لأشياء بعدها، غير أن مجريات التاريخ لم تعط الفرصة لملك الدانمارك لتحقيقها، أو لنقل إن المنافسة البريطانية الفرنسية في البحر الأحمر ، قد جعلت الدانمارك تعزف عن مشروعها الاستراتيجي امام القوتين العظميين، تماما مثلما عزفت هولندا التي كانت تحتل مواقع متميزة في القرن السابع عشر، عن طموحها في السيطرة على هذه المنطقة للأسباب ذاتها.

وفي الواقع أن هذا القول يحتاج الى مزيد من البحث، ولكنه يظل سؤالا يوضع أمام قضايا الأمس وقضايا اليوم ايضاً، فالمعرفة ليست بريئة ومحايدة، أنها جزء من استراتيجية شاملة للدول، وعلى هذا الأساس يتم الصرف على البعثات وتوجيهها

حتى في احلك الظروف المالية لهذه البلدان ،لأنها جزء من مشاريعهم للمستقبل.

ثمة نقطة اخرى يجب إبرازها، أن هذه البعثة لم تتخذ طابعاً تبشيرياً، بل على العكس ، لقد تم تحذير اعضائها من أي عمل تبشيري، وقد أكد ميشائيلس في فكرته المبكرة على خطورة أن تتخذ البعثة طابعاً تبشيرياً، حيث يقول في رسالته الى وزير خارجية الدانمارك، التي عرض فيها مشروعه:

»اننا لانعرف عن العربية السعيدة إلا النزر اليسير ، وإن مثل هذه الرحلة، إذا قام بها رجل مطلع ومعد في مجال الجغرافيا وعلوم الطبيعة وعلم اللغة والتوراة ، سوف تحقق الكثير« وتساءل ميشائيلس عن امكانية تبني ملك الدانمارك لهذه الفكرة ، على أن لا توكل مهمة القيام بالرحلة الى أحد المبشرين أو رجال الدين« (٩).

ثلاثة عناصر كانت توجه الرحلات الاستشراقية والكشوف الجغرافية، سياسة ودين وتجارة، ونستطيع القول إن الدانمارك التي تبعد عن اليمن آلاف الكيلومترات، لم تكن تطمع في أي شكل من اشكال الاستعمار في اليمن، على الأقل من حيث المبدأ ، على الرغم من أن اليمن لم تكن بمنأى عن أطماع البرتغاليين والهولنديين ، ومع ذلك فقد كانت الدانمارك تطمع في البحث عن موضع قدم في هذه المواقع الاستراتيجية الجديدة، المتحكمة في طريق الهند، وربما كانت هذه الرحلة تجربة أولى للتفكير الجدي في الأمر، غير أن المصير الكارثي الذي واجهته المجموعة من جهة ، وتدهور الأوضاع في الدانمارك من جهة أخرى، وظهور بريطانيا وفرنسا كقوتين عظميين في موانئ البحر الأحمر، كل هذه العوامل قد دفعت ملك الدانمارك إلى إعادة التفكير في خططه الاستراتيجية والبحث عن تحالفات جديدة.

أما الدين فقد رأينا سابقا أن نقد النصوص التوراتية كانت الفكرة المحركة للرحلة التي بدأها المستشرق ميشائيلس ، وأخذها ليطورها وزير خارجية الدانمارك، وخرجت إلى الوجود بهذه البعثة التي أخذت طابعاً علمياً شمولياً، ولم يكن من بين أهداف البعثة أي باعث تبشير ،بل على العكس ، لقد كان من بين وصايا الملك الدانماركي، احترام الدين الإسلامي وتعاليمه وعدم استفزاز المواطنين المسلمين.

وما من شك أن التجارة كانت الدافع الاقوى لهذه الدولة الأوروبية البحرية، التي كانت تطمح في تسيير سفنها نحو الشرق، ومن هنا التركيز علي البحر الأحمر ووصف شواطئه وحركة المد والجزر في مياهه.

نستطيع أن نخلص إلى القول إن الرحلة العربية لم تكن كشفاً علمياً وحسب ، ولكنها سياسة وتجارة أيضا، وهذا يعيدنا إلى موضوع التمييز بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية التي تحدث عنها ادوارد سعيد في كتابه (الاستشراق).

نعود الآن للبحث في إنجازات هذه البعثة وآثارها في المعرفة الخاصة باليمن، وهنا لابد من الاشارة إلى أن هذه البعثة، التي ضمت عالم لغة وعالم نبات ، قد فقدت الكثير من أغراضها المصممة في خطة الرحلة بسبب وفاة العالمين المذكورين عند وصولهما إلى اليمن، إلا أن نيبور، الذي كان مقررا له أن يكون عامل المسح الجغرافي ومصمم الخرائط، إضافة إلى مسؤوليته عن الشؤون المالية للبعثة ، استطاع ان يقوم بالمهام المختلفة للبعثة، إضافة إلى مهامه الخاصة، وكل ما كتب عن هذه الرحلة كان مستنداً إلى كتابيه اللذين نشرهما بعد عودته إلى الدانمارك وهما »وصف بلاد العرب« و »وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة« وقد ضمنهما يوميات الرحلة وكل ما جمعه هو وزملاؤه من معلومات لغوية وجغرافية واقتصادية وسياسية وتاريخية عن اليمن، هذا بالاضافة إلى قيامه برسم خريطة لليمن تعد أقدم خريطة أوروبية ، إن جهود نيبور التي كانت تحركها روح المعرفة التي غذت جيلاً من الشباب الاوروبي في عصر الأنوار، تدل بشكل قطاع على أن حب المعرفة إضافة إلى التدريب البسيط يمكن أن تخلق مشروع عالم، وقد رأينا بعد نيبور بمائة عام تقريبا، رحلة معاكسة، هي البعثة المصرية التي أوفدها محمد علي باشا إلى باريس، وضمت طلبة في مجالات علمية مختلفة، إلا أن شيخ البعثة المكلف بإقامة فرائض الصلاة في المجموعة، وهو رفاعة رافع الطهطاوي، قد عاد من هذه البعثة بكتابه الشهير »تخليص الابريز في تلخيص باريز« الذي يعد من النصوص الكلاسيكية في التنوير العربي.

ملاحظة أخرى ينبغي الانتباه لها وهي الوصف ، لاحظوا عنوان كتاب نيبور »وصف بلاد العرب«، ثم الكتاب الذي وضعته بعد سنوات البعثة المرافقة لحملة نابليون على مصر، »وصف مصر« العلماء الاوروبيون بدأوا إذن بالوصف، قاموا بمسح جغرافي تاريخي طبيعي آثاري للأرض التي جاؤوا إليها ، عصا العالم تسبق بندقية الجندي ، وكيس التاجر، قبل الاحتلال والتجارة، لابد من الكشف، هذه هي المغامرة العلمية التي حركت اوروبا، وهنا يمكن أن نجد تبريراً لسلوك ملك الدانمارك الذي قام بتجهيز هذه البعثة رغم الأوضاع المالية والعسكرية المتدهورة لمملكة الدانمارك.

اضافة إلى وصف البلاد والناس ، لم يفت نيبور الحديث عن الفنون، فهذه البعثة التي خرجت في ظل التنوير الأوروبي لم تنس أن تأخذ معها رساما، يقوم بتصوير الناس والأشياء وطرائق الحياة، كما أن نيبور نفسه اصبح رساما، وقد قام برسم عدد من اللوحات التي تكتسب قيمتها الفنية والتاريخية من تصويره لبعض المدن اليمنية في ذلك الحين، فقد قام الاثنان ، نيبور وبورنفايد، رسام البعثة ، برسم لوحات لمدن يمنية مثل يريم واللحية والمخا وتعز وغيرها.

وكان للموسيقى مكان في هذه الرحلة، يتحدث نيبور عن قيام أعضاء البعثة بعزف بعض الألحان الأوروبية، ويتحدث عن اهتمام اليمنيين وانسجامهم مع هذه الألحان وهذا يؤكد أن الموسيقى لغة إنسانية عالمية لا تحاج إلى ترجمة، إنها تطرق الأذن والقلب معاً، مهما كان منشأها، يكتب نيبور في يومياته :(وفي استطاعتنا أن نتصور ذاك المنظر الجميل، منظر نيبور وبورنفايند في إحدى الأمسيات الدافئة والنجوم تتلألأ في السماء، وهما يقفان على تلك الرمال الناعمة كالسجاد الفاخر، ويعزفان ألحانا جميلة للآخرين الجالسين على مقاعد من الطين ،ودخان الغليون يتصاعد من بينهم، يا ترى ماذا كانت تلك الألحان التي كانا يعزفانها في تلك الساحة المحاطة بالحيطان الطينية المنخفضة بتلك المدينة العربية السعيدة الرابضة في الصحراء؟ هل كانت للموسيقار تيلمان؟ أم فيلفدي أم باخ؟ لسنا نعرف شيئا عن هذا الخصوص ومع هذا فإن الألحان التي أتت بعد الخصام الشديد بين أعضاء البعثة وقبل أقسى الأحداث وأخطرها، لم تكن عديمة الجمال كلية بالنسبة لنا ونحن نتخيل ذلك المنظر الجميل ،وانسابت هذه الألحان الغريبة إلى مسامع الأهلين، فاستطاع المارة في الشوارع القريبة سماعها، وشاع في الحال أن من بين الأعمال العجيبة التي يقوم هؤلاء الغرباء هي قدرتهم على عزف الموسيقى المدهشة).١٠) (

أما الرسم والنحت فقد لاحظ نيبور أن اليمنيين لا يميلون إليهما، وذلك لأسباب عقائدية، على الرغم من مشاهدته تماثيل ولوحات فنية رائعة في بلد مسلم آخر هو تركيا.

وهناك الكثير من القضايا التي يمكن استخلاصها من رحلة نيبور إلى اليمن، فهذا اللون من الكتابة يقترب من التاريخ الحقيقي، الذي يهتم بتطور المجتمع ككل، السياسة والثقافة والحياة الاقتصادية والاجتماعية ولا يكتفي بتاريخ الحكام والملوك، وقد أصاب الدكتور الصائدي حين قال (أن هذه المادة التي استخلصت من كتابات عالم رحالة، حاول أن يسجل بعينه الأجنبية الحساسة، وخلفيته العلمية المتميزة، وموضوعيته الواضحة، كل ما صادفه من مظاهر الحياة اليمنية، لن تفيد أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ على أنه تسجيل للأحداث السياسية فحسب، أما أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ على أنه تسجيل لحركة المجتمع في فترة تاريخية معينة، بكل ما يرافق هذه الحركة من مظاهر وتعبيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وروحية... الخ، فإنهم لا شك سيجدون في ما احتواه هذا البحث مادة تاريخية مفيدة، تقربهم من صورة الحياة اليمنية في القرن الثامن عشر).١١) (

الهوامش:

) ١د. أحمد قائد الصايدي – المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن –صـ٣٥

) ٢د. زياد منى – عودة التاريخ المخطوف –مجلة الناقد –مايو ١٩٩٣م.

) ٣الرحلة الأوروبية الأولى لليمن السعيد – مجلة فكر وفن العدد.٤٦

) ٤توركيل هانسن – من كوبنهاجن إلى صنعاء – ترجمة محمد الرعدي – صـ٢٩

) ٥الصائدي مرجع سابق – صـ٣٤

) ٦هانسن مرجع سابق – صـ٧٢

) ٧ادوارد سعيد – الاستشراق –ترجمة كمال ابو ديب صـ٤٧

) ٨هانسن مرجع سابق صـ٧١

) ٩الصائدي مرجع سابق صـ٣٢

) ١٠هانسن مرجع سابق صـ٢٢٥

) ١١الصائدي مرجع سابق صـ١٦